وحدة إعجاز القرآن لطلبة الفصل السادس
بكلية الدراسات الإسلامية

المقرر الدراسي

المبحث الأول: مدخل تمهيدي لدراسة إعجاز القرآن

1- العجز والإعجاز والمعجزة في اللغة
2- مادة العجز في القرآن الكريم
3- الإعجاز والمعجزة في الاصطلاح
4- جواز وقوع المعجزة
5- شروط المعجزة
6- الفرق بين المعجزة والسحر والكرامة
7- القرآن الكريم معجزة الرسول (ص) الكبرى
8- الفرق بين معجزة الرسول (ص) ومعجزات الأنبياء قبله
9- معنى كون القرآن الكريم معجزا
10- آيات التحدي بإعجاز القرآن
11- عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن الكريم مع وفرة دواعي التحدي
12- نقض القول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم

المبحث الثاني: فوائد دراسة إعجاز القرآن

1- إثبات صدق الرسول (ص) في دعواه الرسالة وأنها بالنبوة المحمدية
2- تقوية الصلة بالقرآن الكريم والثقة بأحكامه وتشريعاته
3- تذوق جمالية النظم القرآني وسحره في البيان
4- فوائد علمية وتربوية

المبحث الثالث: عناية العلماء بإعجاز القرآن وأهم المؤلفات فيه

أ- إعجاز القرآن في مؤلفات القدماء

ب- إعجاز القرآن في مؤلفات المحدثين

المبحث الرابع: وجوه الإعجاز في القرآن

1- الإعجاز اللغوي أو البياني 2- الإعجاز الغيبي

3- الإعجاز التشريعي

4- الإعجاز العلمي

5- الإعجاز النفسي

6- وجوه أخرى لإعجاز القرآن

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني
- إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني
- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز لفخر الدين الرازي
- معترك الأقران في إعجاز القرآن لجلال الدين السيوطي
- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن لابن الزملكاني
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي
- فكرة إعجاز القرآن لنعيم الحمصي
- مباحث في إعجاز القرآن لمصطفى مسلم
- الإعجاز في نظم القرآن لمحمد السيد شيخون
- حول إعجاز القرآن لعلي العماري
- المعجزة الكبرى لمحمد أبو زهرة
- إعجاز القرآن الكريم لفضل حسن عباس
- مداخل إعجاز القرآن لمحمود شاكر
- المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم لسعد الدين السيد صالح
- إعجاز القرآن لحسين نصار

- المدخل الوجيز إلى دراسة الإعجاز في الكتاب العزيز لمحمود أحمد غاري
- البيان في إعجاز القرآن لصلاح عبد الفتاح الخالدي
- من بلاغة القرآن لأحمد بدوي
- معجزة القرآن: الكتاب الأول لمحمد متولي الشعراوي
- التصوير الفني في القرآن لسيد قطب
- الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي
- النبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز
- نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني د. عبد الله الجندي
- نظرية التصوير الفني عند سيد قطب د. صلاح عبد الفتاح الخالدي

تعريف الإعجاز

الإعجاز في اللغة:

يقول الجوهري في الصحاح: العجز: الضعف، وأصله التأخر عن الشيء، والقصور عن فعله، وهو ضد القدرة، وأعجزت فلانا وعجزته وعاجزته، جعلته عاجزا.

وقال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: العين والجيم والزاء: أصلان صحيحان، يدل أحدهما على الضعف، والآخر على مؤخر الشيء، فالأول: عجز يعجز عجزا، فهو عاجز: أي ضعيف، ويقال أعجزني فلان: إذا عجزت عن طلبه وإدراكه. والثاني: العجز: مؤخر الشيء، والجمع أعجاز، وأعجاز الأمور أواخرها.

وقال الراغب في المفردات: العجز: أصله التأخر عن الشيء، وحصوله عند عجز الأمر، أي مؤخره، وصار في التعارف اسما للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة، قال تعالى: ﴿أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب﴾ [المائدة: 31]، وأعجزت فلانا وعجزته، وعاجزته: جعلته عاجزا، قال تعالى: ﴿واعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ [التوبة: 2]، وقال تعالى: ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ [الحج: 51]، والعجوز سميت بذلك لعجزها عن كثير من الأمور، قال تعالى: ﴿قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا﴾ [هود: 72].

وفي لسان العرب لابن منظور: العجز: نقيض الحزم، تقول عجز عن الأمر يعجز عجزا فهو عاجز، ويقال عجزني فلان وأعجزني: إذا نسبته إلى خلاف الحزم، كأنه نسبه إلى العجز، والعجز الضعف: تقول: عجزت عن كذا أعجز: أي ضعفت عنه. والتعجيز: التثبيط، تقول عجز الرجل غيره وعاجزه: أي سبقه، فعاجزه: ضعيفا عاجزا عن متابعته. والإعجاز: هو الفوت والسبق، يقال: أعجزني فلان: أي سبقني وفاتني وجعلني عاجزا عن طلبه وإدراكه، وأعجاز الأمور: أواخرها. (بتصرف).

وعليه فالإعجاز والتعجيز في اللغة أن تنسب غيرك إلى الضعف والعجز والقصور عن فعل أمر ما، مع وجود القدرة، ومنه المعجزة، وهي ما يقوم به المتحدي لإثبات العجز.

(11)
المعجزة والإعجاز في الاصطلاح:

- المعجزة في الاصطلاح: هي الأمر الخارق للعادة، المقرون بالتحدي، السالم من المعارضة، يُجريه الله تعالى على يد النبي تصديقاً له في دعوى النبوة.

ومعنى كون المعجزة خارقة للعادة، أي أنها غير خاضعة للمقاييس البشرية والسنن الكونية والأسباب المادية المعروفة والمألوفة، بغض مخالفة لأحكامها، ولذلك لا يمكن تفسيرها أو قياسها بها.

ومعنى كونها مقرونة بالتحدي: أن يكون القصد منها تحدي القوم المكذبين والمعارضين للرسالة، وإثارتهم للإتيان بمثلها، حتى تقوم عليهم الحجة عند عجزهم (ثبوت عجزهم).

ومعنى كونها سالمة من المعارضة: أنه لا يقدر أحد من هؤلاء المكذبين والمعارضين للنبي على الإتيان بمثلها أو بمعارضتها رغم تطلعهم لذلك وبذلهم كل طاقاتهم الممكنة، فسحرة فرعون استخدموا علمهم وسحرهم وحيلهم وعليهم لإبطال معجزة موسى عليه السلام، وعلى العصا ألقى موسى عصاه انقلبت إلى حية تسعى، فلقفت ما أتوا به من حبال وعصي، فدل ذلك على صدق نبوته.

ومعنى كونها أمراً يُجريه الله تعالى على يد النبي، أي أن المعجزة وإن جاء بها النبي فليست من عنده، وليست في مقدوره، وإنما هي من عند الله تعالى.

ومعنى كونها شاهدة على صدق النبي، أي أن الإتيان بالمعجزة دليل على الإقامة الدليل على أنه مرسل من ربه، وإقامة الحجة على قومه، والواجب اتباعه فيما جاء به من الوحي.

- الإعجاز في الاصطلاح: هو إظهار التحدي بالمعجزة، وثبوت العجز من المعارض عن نقضها أو الإتيان بمثلها.

ومعنى كون القرآن معجزاً أنه أعجز الكافرين عندما تحداهم بمعارضة الإتيان بمثله أو سورة من مثله، حيث ثبت عجزهم وعدم قدرتهم على ذلك، فكان بهذا العجز منهم أقوى دليل وأوضح برهان على صدق الرسول (ص)، وعلى أنه رسالته من عند الله تعالى.

يقول القاضي عبد الجبار في تعريف مختصر لإعجاز القرآن: "معنى قولنا في القرآن إنه معجز: أن يتعذر على المتعدين في الفصاحة فعل مثله، في القدر الذي اختص به".

(11) قدمنا تعريف المعجزة والإعجاز في الاصطلاح لكونهما عنصرا هاما من العناصر التي يبنى عليها مضمونه.

ويقول عبد الفتاح الخالدي في تعريف مصطلح «يمكن أن نعرف إعجاز القرآن قائلين: هو عجز العرب الطاعنين لنزول القرآن - الذين كفروا به - عن معارضته، مع توفر ملكتهم البيانية وموهبتهم البلاغية، وقيام الداعي على المعارضة، ووجود الباعث، ومع استمرار التحدي واستمرار هذا العجز من الكافرين جميعا على اختلاف الأماكن والأقوام حتى قيام الساعة».

ألفاظ قرآنية تفيد معنى الإعجاز والمعجزة

ورد في القرآن الكريم استعمال صيغ مشتقات كلمة (عجز) في ست وعشرين مرة، لكن لم يرد فيه استعمال كلمة "إعجاز" ولا كلمة "معجزة"، كما أن العلماء لم يذكروا في حديث الرسول ﷺ وفي كلام الصحابة والتابعين وأول استعمال للكلمتين بالمعنى الاصطلاحي المذكور كان في منتصف القرن الثالث الهجري على ما حققه بعض الباحثين لعلم إعجاز القرآن ومنظم نظمه الجاحظ في كتابه "نظم القرآن". ومع أن الكلمتين لم تستعملا في القرآن فقد وردت فيه كلمات أخرى تدل على معناهما منها:

- الآية: يقول ابن فارس: «الآية: العلامة الظاهرة»، فيكون ما يقدمه النبي من الخوارق آية، أي علامة ظاهرة على نبوته. قال تعالى: ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾ [الأعراف: 127]. وقال: ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾ [هود: 28].

- البينة: قال الراغب: «البينة: الدلالة الواضحة عقلية كانت أم محسوسة». قال صالح لقومه: ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية﴾ [الأعراف: 73]. وقال موسى عليه السلام لفرعون وقومه: ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل﴾ [الأعراف: 105].

- البرهان: قال الراغب: «البرهان هو: بيان الحجة، وهو أوكد الأدلة، وهو الذي يقتضي الصدق أبدا لا محالة». قال تعالى: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا﴾ [النساء: 174]. وقال سبحانه وتعالى مخاطبا نبيه موسى عليه السلام بعد أمره أن يلقي عصاه فإذا هي حية تسعى وأن يخرج يده فإذا هي بيضاء من غير سوء: ﴿فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين﴾ [القصص: 32].

- السلطان: قال ابن فارس: السين واللام والطاء - سلط على القوة والقهر، والسلاطة من التسلط وهو القهر، ولذلك سُمي السلطان سلطانا، والسلطان الحجة، وقال الراغب: السلطان من السلاطة وهي التمكن من القهر، يقال: تسلّط فتسلّط، وسُميت الحجة سلطانا، وذلك لما يلحق بها من الهجوم على القلوب».

قال تعالى عن المواجهة بين الأنبياء والكفار من أقوامهم: ﴿قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين. قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ [إبراهيم 10-11].

وقال تعالى عن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين. إلى فرعون وملئه﴾ [المؤمنون 45-46].

- البصيرة: قال ابن فارس: البصيرة: البرهان، وأصلها: وضوح الشيء، يقال: رأيته لمحا باصرا: أي ناظرا بتحديق شديد، ويقال: بَصُرت بالشيء: إذا عرفته به بصرا عالما، وقال الراغب: «يقال لقوة القلب المدركة بصيرة، والباصرة: الجارحة الناظرة». قال تعالى عن ناقة صالح عليه السلام: ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها﴾ [الإسراء 59].

وقال تعالى عن آيات موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا. قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر﴾ [الإسراء 101-102].

وقال تعالى عن القرآن: ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها﴾ [الأنعام 104].

جواز وقوع المعجزة

لا يشك مؤمن بأن الله سبحانه وتعالى موجد هذا الكون بخيره وشره، دقيقه وجليله، ومدبر شؤونه، وهو موجد نظامه، والذي يوجد الشيء من العدم أقدر على تغيير سنة من سننه أو نظام من أنظمته، بل أقدر على إعادة خلقه وضرب لنا مثلا ونسي خلقه، قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم [يس 78-79]، فالذي جعل النار حارة هي قدرته أن يجعلها باردة، والذي خلق القمر قادر أن يعيده إلى نقطتين، والذي خلق في السم خاصية قادر على سلبها منه، والذي خلق الثعبان من العدم قادر على خلقه من العصا، وهكذا في بقية المعجزات، ومن ينكر هذا فقد أساء الظن بربه وقدرته، واعتقد بوجود إله عاجز عياذا بالله تعالى.(1)

شروط المعجزة

للمعجزة شروط منها:

- أن تكون من الأمر الخارقة للعادة على الوجه الذي يتنافى التعريف، سواء كانت المعجزة كلاما كالقرآن الكريم، وتسبيح الحصى بين يدي الرسول (ص)، وحنين الجذع، وكلام العديد وغير ذلك، أو كانت فعلا كانشقاق القمر، وانفجار الماء من بين أصابعه (ص)، وتكثير الطعام القليل وغير ذلك، أو كانت ترك فعل كعدم إحراق النار لإبراهيم عليه السلام، وعدم إغراق البحر موسى عليه السلام وقومه، وعدم تأثير السم في جسده صلى الله عليه وسلم.
- أن يكون الأمر الخارق للعادة من الله، كما قال تعالى: (قل إنما الآيات عند الله) [الأنعام 109]، وقال الأنبياء عليهم السلام: (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله) [إبراهيم 11]، وحين قال الكفار للرسول (ص): (أئت بقرآن غير هذا أو بدله) أمره الله أن يقول: (قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي) [يونس 15].
- سلامتها من المعارضة، بأن لا يقدر أحد من الخلق على نقضها أو إبطالها أو الإتيان بمثلها أو حتى بما يدانيها ولو اجتمعوا على ذلك وعاونوا عليه واستعان بعضهم ببعض، بالغوا فيه غاية جهدهم، إذ يتحقق العجز

(1) انظر دراسات في علوم القرآن الكريم للدكتور محمد بن عبد الرحمن الومي ص 61 وما بعدها.

عند معارضتها، يتبين صدق الرسول (ﷺ) في دعواه، وأن رسالته من عند الله.

- أن تقع وفق مقتضى قول صاحبها، فلا تقع على خلاف قوله، فإذا جاءت على خلاف قوله لم تكن دليلا على دعواه، ولا دليلا على صدقه فيما ادعاه.

مقتضى كلامه كما حدث لأدعياء النبوة.

- أن تقترن بالتحدي عند وقوعها، وذلك لأمرين: أولهما: إثبات عجز المخاطبين عن الإتيان بمثلها مع شدة دواعي التحدي لديهم، كما في آيات صاحب الدعوة "لا يبطل معتاد علمه وما ورثوه عن آبائهم، وما تواطؤوا عليه من نظم حياتهم وقواعد عيادتهم وما لا علم، لمن جاء بدعوة تعارض هذا كله، وتسفه كل ما علم عليه، وترميهم بالضلال والغي، كان من الطبيعي أن توجد البواعث لمعارضته، وخصوصا عند تحديهم"، والأمر الثاني: إقامة الحجة عليهم عند عجزهم عما يوجب منهم الإذعان والتسليم لها، أي للمعجزة.

- أن يستدل بها النبي على صدقه في رسالته، إذ الغرض من إظهارها إثبات أمرين:

* أولهما: أنه صادق في دعوى الرسالة.

* ثانيهما: أنه مرسل من عند الله لا من غيره، فينبغي أن يكون إظهارها لإثبات ذلك لا لغيره.

- أن يكون ظهور المعجزة أو المعجزات بعد دعوى الرسالة، حتى يتحقق الاستشهاد بها، أما إذا تقدم وقوع الأمر الخارق على دعوى الرسالة، فإنه لا يسمى معجزة، ولذا يسمى "إرهاصا" كتظليل السحابة للرسول (ﷺ) وهو في سفره إلى الشام قبل البعثة.(1)

(1) انظر: المعجز السابق ص 59 - 61، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج 1 ص 70-71.
ومباحث في إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم ص 15-17.

الفرق بين المعجزة والسحر والكرامة

- الفرق بين المعجزة والسحر: المعجزة نفحة من نفحات الحق، تخرج عن أخفى الأسباب المعتادة والوسائل المشاهدة، والغايات المألوفة.
أما السحر وما أشبهه، فإنها فنون خبيثة ذات قواعد وأوضاع يعرفها كل من ألمّ بها، ويصل إلى وسائلها وغاياتها كل من عالجها من بابها.
ولهذا كان أول من آمن بموسى علم السحرة أنه ليس بعلم، لأنهم أعلم بهذا الفرق الواضح والبون الشاسع بين سحر يعلم وما جاء به موسى آية لعلم.
فقد جاء موسى عليه السلام بمعجزة عصا من الخشب لا روح فيها ولا حركة ولا ليونة ولا طواعية، ثم ألقاها بأمر الذي أرسله، فإذا هي حية تسعى، بينما الأمة التي تحداها بذلك كانت قد تفوقت في السحر وحذقته، وطرقت فيه بأوفر سهم وأوفى نصيب، فخولها أنبغ أمة وهو فرد.
وهم ما يفتؤون في السحر وهو موضع نشأته فيعلم لم يُعرف يوماً من الأيام بمعالجة السحر علم مُعتبر، يُعدد علمه وتُعدد وسائله، وهو جزء من هذه الأسباب والمظاهر.
فهل يبقى للشك ظل بعد أن ألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون، ووقع الحق وبطل ما كانوا يعملون؟ وألقي السحرة ساجدين قالوا: آمنا برب العالمين رب موسى وهارون.
الحق أبلج، ولذلك كان أول من آمن به علم السحرة أنه ليس بالأنعم أعرف بالسحر ومقدماته ونتائجه، وقد رأوا بأي العين أن ذلك الإعجاز ليس من نوع هذا السحر المبني على مقدمات يستطيع كل إنسان أن يزاولها، ولها نتائج محدودة لا يمكن أن يتجاوزها، نعم لم يطق السحرة صبراً عن المبادرة إلى الاعتراف والخضوع للحق بعد ما تبين، فما كان لعلمهم ذلك أن يُغلبوا أو يُخلبوا، وقالوا لفرعون ملئكم ومعبودهم بالأمس:
(لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا، فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا) اقرأ إن شئت الآيات بعدها في سورة طه إلى قوله سبحانه: (وذلك جزاء من تزكى).
قل مثل ذلك في معجزة كل رسول أرسله الله، قله في عيسى عليه السلام وإبرائه الأكمه والأبرص وإحيائه الموتى وخلقه من الطين كهيئة الطير بإذن الله أمام قوم نبغوا في الطب أيما نبوغ، وصاروا فيه أئمة معارة.

مثل ذلك وأكثر من ذلك في خاتم الأنبياء سيدنا محمد (ﷺ) وما جاء به من آيات بينات ومعجزات واضحات.[1]

الفرق بين المعجزة والكرامة

الكرامة فضل من الله تعالى وكرم منه تختص به من يشاء من عباده الصالحين، وقد تكون أمرا خارقا للعادة والأسباب العادية، لكنها لا تكون معجزة، لأن من شروط المعجزة أن تكون مقرونة بدعوى الرسالة، وأن يعاجزها التحدي لمنكريها، والكرامة ليس فيها شيء من ذلك، بل هي إن ظهرت لا تكون إلا مؤيدة للمعجزة، لأنها نتيجة العمل الصالح بدعوة النبي المظهر للمعجزة.

يقول الجويني رحمه الله تعليقا على الفرق بين الكرامة والمعجزة؟ قلنا: لا يفترقان في جواز العقل، إذ يقع المعجزة على حسب دعوى النبوة، ثم قال: وليس في وقوع الكرامة ما يقدح في المعجزة، فإن المعجزة لا تدل لعينها، وإنما تدل لتعلقها بدعوى النبي الرسالة، ونزولها منزلة التصديق بالقول، والملك الذي يصدق مدعي الرسالة بما يواطئه وبما يطابق دعواه، لا يمتنع أن يصدر منه مثله إكراما لبعض أوليائه.[2]

القرآن الكريم معجزة الرسول (ﷺ) الكبرى

الرسول (ﷺ) وإن أجرى الله على يديه معجزات مادية كثيرة تدل على نبوته، وأنه مرسل من عند الله تعالى، إلا أن معجزته الكبرى التي وقع بها التحدي الصريح بأن أنكر دعوته هي القرآن الكريم، فالقرآن الكريم وقع التحدي، وهو آية نبينا (ﷺ) في دعواه الرسالة، وهو برهان صدقه في كل ما جاء به وأخبر به عن ربه تعالى، أما المعجزات المادية الأخرى وإن كانت مؤيدة لنبوته، فلم يقع بها التحدي.

الفرق بين معجزة الرسول (ﷺ) ومعجزات الأنبياء قبله

كل نبي مرسل يدعو يؤيده الله تعالى بآيات بينات ومعجزات خارقة تؤيد صدقه فيما يدعو إليه وأنه من عند الله، لا من عند غيره، كما

(1) انظر مباحث العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ج 1 ص 77-73.

(2) انظر الإرشاد ص 349.

المبطلون. والناظر في معجزات الأنبياء السابقين يجدها جميعا معجزات مادية محسوسة، يشاهدها أقوامهم بعيونهم، ويتفاعلون معها كواسطة، وهذا واضح في ناقة صالح، ونار إبراهيم، وعصا موسى، ومائدة عيسى عليهم السلام. أما معجزة محمد (ﷺ) القرآن الكريم فلم تكن مادية محسوسة، بل كانت معنوية بيانية تدرك بالعقل والذوق لا بالحواس.

ثم إن معجزات الأنبياء السابقين كانت خارجة عن كتبهم السماوية المنزلة عليهم، فكتاب موسى عليه السلام هو التوراة، ومعجزته هي العصا واليد، وكتاب عيسى عليه السلام هو الإنجيل، ومعجزته هي إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله، بينما معجزة محمد (ﷺ) متضمنة في كتابه، تنطق بها آياته وألفاظه وتراكيبه، ولم تكن خارجة عنه في أمور مادية محسوسة، وهذا تعبر عنه بوضوح آيات التحدي بالقرآن الكريم، من مثل قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ [البقرة 23]، وقوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ [هود 13]، وقوله تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ [الإسراء 88].

ومن الفروق أيضا أن معجزات الأنبياء السابقين انتهت بانتهاء وقوعها ولم تكن حجة إلا على من شاهدها أو وصلت إليه بالتواتر القطعي، أما معجزة نبينا (ﷺ) فباقية مستمرة ما بقيت السموات والأرض، تخاطب العقول وتتحدى المعارضين وتقيم الحجة على المنكرين، ومن هذا قال (ﷺ): «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحى الله إليّ، فأرجو أني أكثرهم تابعا يوم القيامة». رواه البخاري ومسلم.

الإعجاز البياني للقرآن الكريم: أركانه ومظاهره

- ١ - مقال للدكتور حسين مطاوع الترتوري

الحمد لله رب العالمين الذي أنزل القرآن على رسوله الأمين بلسان عربي مبين، وبين فيه ما يحقق سعادة الناس في الدارين. وهو المعجزة الكبرى للرسول عليه الصلاة والسلام. وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً، وبعد:

فإن موضوع علم أصول الفقه: الأدلة الكلية الموصلة إلى الفقه وأقسام هذه الأدلة ومراتبها وكيفية استثمار الأحكام الشرعية منها[1].

وأول هذه الأدلة الكلية وأهمها القرآن الكريم، وهو حجة على الناس وأحكامه واجبة الاتباع، وذلك لأنه من عند الله سبحانه.

والدليل على أن القرآن من عند الله لا من عند البشر إعجازه لهم أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه.

ومن هنا كان مبحث إعجاز القرآن من أشرف المباحث وأجلها، وهو إلى جانب ذلك موضوع يشترك في بحثه علماء الأصول باعتبار أن القرآن أحد الأدلة الكلية بل هو أهمها كما قدمت. ويشترك في بحثه علماء اللغة لأن القرآن نزل بلسان العرب ولغتهم. قال تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}[2]. فهم القادرون على اكتشاف رفعة أسلوبه وتميزه على سائر كلام العرب وعلو شأنه وعظمته. وكذا فإن مبحث الإعجاز يعتبر من مباحث علوم القرآن ويدخل من جانب آخر في مباحث العقيدة.

وقد استعنت بالله على الكتابة في إعجاز القرآن هذا البحث وسميته: الإعجاز البياني للقرآن الكريم، أركانه ومظاهره.

وأما هدف هذه الدراسة فهو بيان أركان الإعجاز البياني ووجوه هذا الإعجاز ومظاهره، وإبطال القول بمذهب الصرفة الذي قال به النظام المعتزلي.

أولاً: أركان[3] الإعجاز البياني للقرآن الكريم[4] وهي ثلاثة.

الأول: التحدي: وهو طلب المبارزة والمنازلة والمعارضة[5].

بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً إلى العرب وأعطاه آية وبرهاناً على صدقه، القرآن الكريم[6]. وقال لهم: إن هذا القرآن من عند الله. فلما كذبه العرب، تحداهم وكان ذلك على عدة مراحل:

تحداهم أن يأتوا بقرآن مثله، قال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُواْ صَادِقِينَ}[7]. ولكن أنى لهم أن يأتوا بمثله وهو كلام الله المنزه عن كل ما يشوب كلام البشر من نقص. لم يستجب العرب لهذا التحدي. وبعدها تحداهم الله أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات قال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}[8]. ولم يستجيبوا، فتحداهم أن يأتوا بسورة، فقال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}[9]. وقال تعالى: {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}[10].

ومع كل ما سبق من التحدي، فلم يأتوا بقرآن مثله ولا بعشر سور مثله ولا بسورة مثله أو من مثله، وعندها آمن من شاء الله له الهداية وكفر من أصر على عناده. وهذا الصنف الأخير بدلاً من أن يستجيب للتحدي مع يقينهم بالعجز لجأوا إلى أسلوب العاجز المكابر، فوصفهم الله بقوله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لا تَسْمَعُواْ لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ}[11].

لذا سجل القرآن عجز الإنس والجن مهما أوتوا من قوة وبذلوا من جهد، فقال تعالى: {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً}[12].

الثاني: وجود المقتضي عند المتحدى لمواجهة التحدي.

أما وجود المقتضي فإن محمداً صلى الله عليه وسلم دعاهم إلى توحيد الله في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته. وهذا ما جعلهم يقفون في وجه دعوته، خاصة زعماء قريش لأنهم عرفوا أن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم تقضي على امتيازاتهم القبلية ومواقعهم الإجتماعية وتجعل الولاء والتوجه لله وحده. وهذا

يفقدهم زعامتهم التي بنيت على اعتبارات جاهلية لم يقرها الإسلام ونفاها وجعل الميزان الذي يوزن به الناس التقوى، فقال تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ}[13].
وقد كان العرب يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى، فعاب عليهم القرآن فعلتهم هذه وسفه أحلامهم ؛ لأن العاقل السوي لا يعبد صنماً ينحته بيده أو يصنعه من تمر إذا جاع أكله، بل أكثر من ذلك فقد سجل القرآن أن كل من وقف في وجه الدعوة عناداً وكفراً أضل من الأنعام وكالدواب والكلاب. قال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}[14]. وقال تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ}[15].
وقال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[16].
ومن هنا كانت حاجتهم ماسة وحرصهم شديداً على أن يأتوا ولو بسورة من مثله ليبطلوا حجة محمد صلى الله عليه وسلم بأن القرآن من عند الله ويثبتوا أن مسلكهم في العبادات وفي كل حياتهم صحيح، وأن ما وصفهم به القرآن بأنهم كالأنعام والدواب والكلاب وغير ذلك إنما هو باطل، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث.
يقول الرافعي في وقفة له عند قوله تعالى: {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا...} ((تأمل نظم الآية تجد عجباً، فقد بالغ في اهتياجهم واستفزازهم ليثبت أن القدرة فيهم على المعارضة كقدرة الميت على أعمال الحياة لن تكون ولن تقع، فقال لهم: ((ولن تفعلوا)). أي هذا منكم فوق القدرة وفوق الحيلة وفوق الاستعانة وفوق الزمن، ثم جعلهم وقوداً ثم قرنهم إلى الحجارة ثم سماهم كافرين، فلو أن فيهم قوة بعد ذلك لانفجرت ولكن الرماد غير النار))[17].

الثالث: انتفاء المانع عند المتحدي من قبول التحدي.
وذلك من ثلاثة وجوه[18].
الأول: من الناحية اللفظية.
الثاني: من الناحية المعنوية.
الثالث: من الناحية الزمنية.
أما من الناحية اللفظية، فإن العرب كانوا أهل فصاحة وبيان يشهد لهم بذلك أشعارهم وخطبهم وأمثالهم ومقدرتهم على النقد وتمييز الغث من السمين. وكانوا قد برعوا في اللغة ووصلوا إلى مستوى رفيع. وقد وصفهم الرافعي بقوله: {كالعرب أصحاب الفطرة اللغوية والحسن البياني الذين صرفوا اللغة وشققوا أبنيتها وهذبوا حواشيها وجمعوا أطرافها واستنبطوا محاسنها"[19].
وقد كان العرب على مستوى رفيع من البلاغة والنقد والذوق البياني، خذ مثلاً على ذلك، أنه عرض على الخنساء[20] بيتان من الشعر لحسان بن ثابت[21] في سوق عكاظ وهي قوله:

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضحى وأسيافُنا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دماً

ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خال وأكرم بنا ابنما

فقالت الخنساء: ((ضعفت افتخارك وأنزرته في ثمانية مواضع. قال: وكيف. قالت: قلت ((لنا الجفنات)) والجفنات ما دون العشر، فقللت العدد، ولو قلت الجفان لكان أكثر. وقلت ((الغر)) والغرة الباقي في الجبهة، ولو قلت البيض لكان أكثر اتساعاً. وقلت ((يلمعن)) واللمع شيء يأتي بعد الشيء ولو قلت يشرقن لكان أكثر لأن الإشراق أدوم من اللمعان. وقلت ((بالضحى)) ولو قلت بالعشية لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً. وقلت ((أسيافنا)) والأسياف دون العشر. ولو قلت سيوفنا كان أكثر. وقلت ((يقطرن)) فدللت على قلة القتل، ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم، وقلت دما والدماء أكثر من الدم وفخرت بمن ولدت ولم تفتخر بمن ولدوك))[22].

وقوم حالهم كما وصفت لك لم يكن عندهم مانع من الإتيان بمثل القرآن الذي نزل بلغتهم إلا العجز. وهذا دليل على أن القرآن ليس من كلام البشر بل هو كلام الله جلت قدرته.
وأما من الناحية المعنوية فإن العرب كانوا على مستوى من رجاحة العقل والفطنة والذكاء بحيث يستطيعون الإتيان بمثل القرآن لو كان من كلام البشر. وقصة الخنساء في نقد شعر حسان خير شاهد لما نقول، لكن أنَّى لهم وهو كلام الله {تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}[23].
وأما من الناحية الزمنية فإن القرآن لم ينزل دفعة واحدة وإنما نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة وبقي التحدي قائماً. ولو نزل القرآن دفعة واحدة لاعتذروا بأن الوقت قصير ولطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يمهلهم، لكن الوقت طويل ولم يكن لديهم مانع إلا شعورهم بالعجز.

ثانياً: مظاهر الإعجاز البياني للقرآن الكريم

وهي سبعة:
الأول: الخصائص العامة للأسلوب القرآني.
الثاني: ضرب الأمثال في القرآن الكريم.
الثالث: الإيجاز في القرآن الكريم.
الرابع: التكرار في القرآن الكريم.
الخامس: الكلمة القرآنية.
السادس: الجملة القرآنية.
السابع: الفاصلة القرآنية.

الأول: الخصائص العامة للأسلوب القرآني

1 - القرآن الكريم يجري على نسق غاية في البلاغة والفصاحة خارج عن المألوف من نظام جميع كلام العرب، فله أسلوب يختص به ويميزه عن سائر الكلام. فلا هو بالشعر ولا بالنثر. لكنك لو قرأت بعض آياته شعرت بالنسق العجيب بينها، وكذا بين الكلمات، وحتى بين الحروف فتجد تناسقاً عجيباً بين الرخو والشديد والمجهور والمهموس والانفتاح والإطباق... الخ[24]، بحيث إذا قرأت القرآن شعرت بتأثير شديد في نفسك[25]. استمع إلى قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ}[26].
2 - يمتاز القرآن باتساق عباراته وبلاغتها وبديع نظمه على كثرة سوره وطولها وقصرها، من غير أن تختل هذه المزية فيه بخلاف كلام العرب، فإنك لا تجد لحكيم ولا لشاعر أو فصيح كلاماً بطول القرآن وعلو شأنه، بل قد يبدع أحدهم في بعض قوله ويَخْفَق في آخر، بل قد يناقض نفسه، أما القرآن فهو كما وصفه الله: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيرًا}[27].
3 - الناظر في القرآن يجد فيه القصص والمواعظ والاحتجاج والحكم والأحكام والوعد والوعيد والتبشير والتخويف ومع ذلك فهو غاية في الفصاحة وبديع النظم بخلاف كلام البشر من نثر أو شعر، فقد يجيد أحد الشعراء في المدح دون الهجاء أو التأبين دون التقريظ أو الوصف دون الغزل، أو عكس ذلك، لكنك لا ترى شاعراً ولا ناثراً يجيد كل ما سبق من الأساليب بنفس القوة. ولذلك ضرب العرب المثل بامرئ القيس إذا ركب والنابغة إذا رهب وزهير إذا رغب[28].
4 - إن معاني القرآن مصوغة بشكل محكم بديع تصلح لأن يخاطب بها الناس على اختلاف بيئاتهم وتفاوتهم في الثقافة والعلوم بحيث تؤدي الغرض الذي سيقت من أجله فيتأثر كل سامع لها ويفهم منها مقصدها على اختلاف ثقافة السامعين وعقولهم. استمع معي إلى قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَآءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا}[29]، فالعرب في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام فهموا من هذه الآية، على قلة علومهم، دليلاً على قدرة الله سبحانه وهو: أنه خَلَقَ الشمس والقمر يبعثان بالضياء إلى الأرض، وقد غاير الله سبحانه في التعبير بالنسبة لكل منهما تنويعاً للفظ، وهذا معنى صحيح تدل عليه الآية. وأما عالم اللغة فيفهم أن الآية سيقت للدلالة على قدرة الله وسمى الله الشمس سراجاً لأنها تجمع إلى

النور الحرارة، وسمى القمر منيراً لأنه يبعث بضياء دون حرارة، وهذا المعنى صحيح تدل عليه الآية دلالة لغوية واضحة. وأما علماء الفلك في هذه الأيام، فقالوا: نعم الآية مسوقة للدلالة على قدرة الله، لكن الله سبحانه غاير بين وصف الشمس وبين وصف القمر، فسمى القمر منيراً لا مضيئاً لأنه جسم مظلم يعكس ما يسقط عليه من ضوء الشمس. وهذا صحيح لغة فإننا نقول غرفة منيرة إذا انعكس عليها الضوء من مصباح في وسطها. أما الشمس فإن الحرارة والضوء ينبعثان منها فناسب تسميتها سراجاً[30].

الثاني: ضرب الأمثال في القرآن الكريم

وقد اعتمد الأسلوب القرآني على ضرب الأمثال وجعله قاعدة أساسية في التعبير عن المعاني.
ومن أساليب ضرب الأمثال المتبعة في القرآن[31]:
أ – إخراج المعاني الذهنية في صورة حسية تُرسم في المخيلة حية متحركة. خذ هذا المعنى الذهني المجرد وهو أن الكفار محرومون من دخول الجنة وأنهم غير مقبولين عند الله بتاتاً، وتأمل كيف عرضه الله في القرآن: {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَآءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ}[32] هكذا في صورة حسية ترسم في الخيال صورة تفتح أبواب السماء وصورة ولوج الجمل في سم الخياط. وسواء أكان الجمل هو الحيوان المعروف أم الحبل الغليظ[33] فقد استقر في مخيلة السامع استحالة دخول الكافرين الجنة[34].
ومن أمثلة ذلك أيضاً أنك لو أردت أن تعرض لمعنى النفور الشديد من دعوة الإيمان بصورته التجريدية تقول: إن القوم ينفرون أشد النفرة من دعوة الإيمان. أما القرآن فقد عَرض فيه الأمر بأسلوب تصويري حسي فقال تعالى: {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ}[35]، فاشترك هنا مع الذهن حاسة البصر وملكة الخيال وانفعال السخرية من هؤلاء الذين يفرون من الحق كما تفر حمر الوحش من الأسد[36].

ب – تصوير الحالات النفسية والمعنوية في صورة حسية مُتخيلة، حية متحركة.
فعندما أراد الله سبحانه أن يفضح ويعري أولئك الذين هيأ لهم سبيل الهداية لكنهم رفضوا فأصبحوا في شقاء بما علموا وما جهلوا فلا هم استراحوا بما هيأ الله لهم من سبيل الخير والرشاد ولا هم استراحوا بإعراضهم عن هذا الخير، فيصور القرآن حالتهم النفسية والمعنوية هذه في صورة حسية متحركة، قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[37].

يقول سيد قطب: "إنه مشهد من المشاهد العجيبة، الجديدة كل الجدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات والتصويرات، إنسان يؤتيه الله آياته، ويخلع عليه من فضله، ويكسوه من علمه ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع... ولكن ها هو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخاً، ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه، فهو ينسلخ من آيات الله، ويتجرد من الغطاء الواقي والدرع الحامي، وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى ويهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم فيصبح غرضاً للشيطان لا يقيه منه واق، ولا يحميه منه حام، فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه.. ثم إذا نحن أولاء أمام مشهد مفزع بائس نكد... إذا نحن بهذا المخلوق لاصقاً بالأرض ملوثاً بالطين. ثم إذا هو مُسخ في هيئة الكلب يلهث إن طورد ويلهث إن لم يطارد.. كل هذه المشاهد المتحركة تتتابع وتتوالى، والخيال شاخص يتبعها في انفعال وانبهار وتأثر"[38].

ج – عرض القضايا المنطقية والجدلية في أسلوب ضرب الأمثال وذلك في معرض الاستدلال على عظمة الخالق وقدرته، فالقرآن يأتي بالدليل المقنع من واقع الناس وما يشاهدونه ويعايشونه، لكنه معروض في صورة مؤثرة ومن ذلك قوله تعالى: {وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ}[39]. ومع أن هذا المشهد كما تلاحظ يتكرر في حياة الناس إلا أنه عرض بأسلوب تصويري وكأنها لوحة طبيعية رسمت عليها النخيل والأعناب المثمرة[40].

د – إعطاء الحركة لما من شأنه السكون وخلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية والانفعالات الوجدانية فتصبح كأنها أشخاص بارزة لها عواطفها وخلجاتها الإنسانية. تأمل في قوله تعالى: {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً}[41]، تجد التعبير بالاشتعال يجعل الخيال يتصور أن للشيب حركة في الرأس كحركة اشتعال النار في الهشيم مما يضفي على النص الحياة والجمال[42].
وأما خلع الحياة على المواد الجامدة فمثاله قوله تعالى {وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}[43]، فالصبح مشهد معروف متكرر للناس، لكنه في التعبير القرآني كأنه شخص حي يتنفس كما يتنفس الأحياء. وكذا قوله تعالى {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}[44]. وقوله تعالى: {فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ}[45].
وأما تصوير الانفعالات الوجدانية فهو في غاية الروعة، فالغضب والروع والبشرى انفعالات وجدانية تصبح في التعبير القرآني كأنها حية متحركة، فالغضب يسكت كما في قوله تعالى: {وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ}[46]. والرَّوع يذهب ويزول، والبشرى تجيء كما في قوله تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ}[47].
إلى غير ذلك من أساليب التصوير المتبعة في التعبير القرآني[48]. وطريقة التصوير التي يتبعها القرآن الكريم في التعبير لها فائدة عظيمة في وصول المعاني إلى النفس بشتى الوسائل لأن المعاني إذا عرضت في صورتها التجريدية خاطبت الذهن فقط، أما إذا عرضت بالأسلوب التصويري فإنها تخاطب الذهن والحس والوجدان وتصل إلى النفس من منافذ شتى)) من الحواس بالتخييل، ومن الحس عن طريق الحواس، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء، ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس لا منفذها المفرد الوحيد[49].

الثالث: الإيجاز في القرآن الكريم
من خصائص الأسلوب القرآني الإيجاز وهو التعبير عن المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة تؤدي الغرض من غير إخلال بالمعنى.
والإيجاز نوعان: إيجاز حذف وإيجاز قصر.
أما إيجاز الحذف فهو: إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام[50].
ومن أمثلة إيجاز الحذف قوله تعالى: {وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ}[51] فإن الآية تشير إلى شيوع القول في أهل القرية، وأن القرية كُلَّها تكلمت في ذلك، وقوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى}، ففي هذه الآية إيجاز حذف وهو حذف الجواب كأنه قيل لكان هذا القرآن كذا وكذا...
والحذف هنا أبلغ من الذكر لأن النَفْس تذهب كل مذهب في القصد من الجواب، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان.
وأما إيجاز القصر فهو: بُنْيَةُ الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف[52] وله أمثلة كثيرة في القرآن حتى أن الشيخ أبا زهرة رحمه الله قال بأن هذا النوع من الإيجاز لا تكاد تخلو منه سورة أو جزء سورة[53]. ومن أمثلة إيجاز القصر:
قوله تعالى: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}[54].
يقول الباقلاني: "هذه تشمل على ست كلمات، سناؤها وضياؤها على ما ترى، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد، ورونقها على ما تعاين، وفصاحتها على ما تعرف.
وهي تشتمل على جملة وتفصيل وجامعة وتفسير: ذكر العلو في الأرض باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبي النساء، وإذا تحكم في هذين الأمرين، فما ظنك بما دونهما ؟ لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم والقلوب لا تقر على هذا الجور. ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد، وكفت في التظليم، وردت آخر الكلام على أوله وعطفت عجزه على صدره"[55].

ومن أمثلة إيجاز القصر، قوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ}[56] وقد كان العرب يستحسنون بل يعجبون بحكمة قالوها ويعتبرونها قمة البلاغة لما فيها من إيجاز وهي قولهم ((القتل أنفى للقتل)).
وقوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} يفوق ما استحسنه العرب من أربعة أوجه[57]:
الأول: أن الآية أكثر فائدة، ففيها من المعاني والفوائد ما في قولهم (القتل أنفى للقتل) وزيادة المعاني الحسنة التالية:
أ – إبانة العدل بذكر كلمة القصاص وأن القتل ليس تشفياً من المقتول.
ب – الترغيب في القصاص بذكر الحياة وجعلها نتيجة له.
جـ - القصاص يشمل النفس والأعضاء بخلاف لفظ القتل، فإنه قاصر على النفس.
ثم إن مفاد الآية مستقيم على إطلاقه لأن الإنسان إذا علم أن اعتداءه على الآخرين يوجب القصاص منه ارتدع عن قتلهم أو جرحهم فكان ذلك سبب حياته وحياة من أراد قتله. أما الحكمة فإن مفادها غير مستقيم على إطلاقه، فليس كل قتل أنفى للقتل كما تقول، بل إن القتل عدواناً أدعى للقتل وليس أنفى له.
الثاني: الآية أوجز عبارة، فإن قوله تعالى: {الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} تتكون من عشرة أحرف، أما قولهم ((القتل أنفى للقتل)) فيتكون من أربعة عشر حرفاً.
الثالث: الآية لا تكرار فيها بخلاف حكمة العرب ففيها تكرار لفظ القتل.
الرابع: الآية أحسن تأليفاً لملاءمة حروفها بعضها بعضاً، يقول الرماني[58]: "وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرك بالحس وموجود في اللفظ، فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة، لبعد الهمزة عن اللام. وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من الألف إلى اللام"[59].
ومن أمثلة إيجاز القصر قوله تعالى: {وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ}[60] فإن الآية تشير إلى الصراع الدائم بين الخير والشر وبين الحق والباطل وبين الفضيلة والرذيلة. وأن سيطرة الشر والباطل والرذيلة يؤدي إلى فساد في الأرض ولا يزول هذا الفساد إلا بمقاومة الخير والحق والفضيلة له[61].

— الرابع: التكرار في القرآن الكريم

وهو من أساليب الفصاحة في اللغة العربية لما ينطوي عليه من فوائد في الكلام. فإن كلام البلغاء لا يتكرر عبثاً وإنما لفوائد ومعان جديدة. ولما كان هذا حال كلام العرب، فكلام الله أولى بذلك فإنك لا ترى كلمة أو آية تكررت إلا لحكمة وفائدة.
وقد استعمل التكرار في القرآن جرياً على عادة العرب في كلامهم، يقول الزَرْكشي[62]: "وقد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة، ظناً أنه لا فائدة له، وليس كذلك، بل هو من محاسنها لاسيما إذا تعلق بعضه ببعض، وذلك أن عادة العرب في خطاباتها إذا أبهمت بشيء إرادةً لتحقيقه وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء عليه، كررته توكيداً، وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم عليه، أو الاجتهاد في الدعاء عليه، حيث تقصد الدعاء، وإنما نزل القرآن بلسانهم"[63].
وقبل أن أجمل أغراض وفوائد التكرار في القرآن الكريم أسوق للقارئ صوراً من التكرار في الشعر الجاهلي لبيان أنه من أساليب العرب المتبعة في الكلام.
مثال ذلك شعر المهلهل بن ربيعة بمناسبة حرب البسوس يصف الأيام التي كانت الدائرة فيها لبني تغلب على بكر[64]:

على أن ليس عدلاً من كليب إذَا رَجَفَ العِضَاةُ من الدَّبُور[65]

على أن ليس عَدْلاً من كُليب إذا طُرِدَ اليتيمُ عن الجَزورِ

على أن ليس عدلاً من كليب إذا ما ضِيمَ جيرانُ المُجيرِ

على أن ليس عدلاً من كليبِ إذا خِيفَ الَمخُوف من الثَّغُور

على أن ليس عدلاً من كليب غداةَ بَلابِل الأَمْرِ الكبير[66]

على أن ليس عدلاً من كليب إذا هبَّتْ رياحُ الزمهرير

على أن ليس عدلاً من كليب إذا وثب المثار على المثِير

على أن ليس عدلاً من كليب إذا برزت مُخَبَّأَةُ الُخدورِ

على أن ليس عدلاً من كليب إذا عَلنت نَجِيَّاتُ الأمور

ومن ذلك قصيدة الحارث بن عباد[67] بمناسبة حرب البسوس التي مطلعها:

كل شيء مصيره للزوال غير ربي وصالح الأعمال

ثم يقول في قصيدته:

قرِّبا مَرْبط النَّعامة مني لقحَت حرب وائل عن حِيَال[68]

قرِّبا مَرْبط النَّعامة مني ليس قولي يرادُ لكنْ فعَالِي

قرِّبا مَربط النَّعامة مني جَدَّ نَوْحُ النِّساء بالإعوال

قرِّبا مَرْبط النعامة مني شابَ رأسي وأنكرتني الْعَوالي

قرِّبا مَرْبط النعامة مني لِلسُّرى والغُدُوِّ والآصال

قرِّبا مربط النِّعامة مني طال ليلي على الليالي الطوال

قرِّبا مربط النعامة مني لإعْتِناق الأبطال بالأبطال

قرِّبا مَرْبط النعامة مني واعدلا من مقَالَةِ الجُهَّال

قرِّبا مَرْبط النعامة مني ليس قلبي عن القِتال بسالِ

قرِّبا مَرْبط النعامة مني كلما هبَّ ريح ذَيْل الشمَّال

قرِّبا مَرْبط النعامة مني لبُجير[69] مُفَكِّكِ الأغلال

قرِّبا مَرْبط النعامة مني لكريم مُتَوَّجٍ بالجمال

قرِّبا مَرْبط النعامة مني لا نبيعُ الرجال بَيْعَ النِّعَال

قرِّبا مَرْبط النعامة مني لبجير فِداه عَمِّي وخالي

إلى غير ذلك مما ورد في أشعارهم من تكرار بعض الكلمات أو الجمل[70]. أما أهم فوائد التكرار في القرآن فهي[71]:

1 - تقرير المعنى وتوكيده، فإن الكلام إذا تكرر تقرر. وقد ظهر هذا الأمر في المواطن التالية:

أ – في الآيات المسوقة للوعيد والتهديد، كقوله تعالى: {كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ}[72]، وقوله تعالى: {وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ}[73].

ب – في الآيات المسوقة في مقام التعظيم والتهويل أو التعجب، كقوله تعالى: {الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ}[74]، وقوله تعالى: {الْحَآقَّةُ * مَا الْحَآقَّةُ}[75]، وقوله تعالى: {إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ}[76]، وقوله تعالى: {فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ}[77].

جـ - في الآيات المسوقة في التنبيه على ما ينفي التهمة حتى يتلقى الكلام بالقبول، كقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الأَخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ}[78].

د – في الآيات المسوقة في مقام الاتعاظ، كقوله تعالى: {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ}[79]، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ}[80].

هـ - في الآيات المسوقة في مقام إنعام الله على عباده وبيان قدرته كقوله تعالى: {أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ} وقوله: {أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ}، وقوله: {أَفَرَءَيْتُمُ الْمَآءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ}[81].

2 - إذا طال الكلام وخُشي تناسي الأول أعيد ثانياً تجديداً لعهده، كقوله تعالى: {أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ}[82]. وقوله تعالى في نفس السورة {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِمَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}[83]. وغيرها من الأمثلة كثير[84].

3 - بيان إعجاز القرآن للعرب فإن من عجز عن الإتيان بالمعنى بصورة واحدة فإنه يعجز من باب أولى عن الإتيان بالمعنى الواحد بصور وقوالب لفظية غاية في الفصاحة والبيان.

4 - إفادة معنى جديد فإن بعض الآيات تكررت في كتاب الله وفي كل مرة تكون متعلقة بما قبلها، كقوله تعالى: {فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} كررت هذه الآية في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة، ثمان مرات عقيب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه ومبدأ الخلق ومعادهم فناسب ذكر الآلاء عقيب كل ذلك. ثم تلتها سبع آيات فيها ذكر النار وأهوال يوم القيامة، فحسن ذكر الآلاء عقيبها لأن في صرف المؤمن عن عذاب النار أكبر نعمة، وبعد هذه السبع ثمان آيات في وصف الجنتين وأهلهما ونعيمهم فيهما فحسن أن يذكر عقيبها نعم الله على المؤمنين أن وفقوا للعمل الصالح فاستحقوا الجنتين، ثم بعد ذلك ثمان آيات للجنتين اللتين دونهما، ومن استحقها بتوفيق الله ناسب ذكر نعمة الله عليه.

الخامس: الكلمة القرآنية

ولا أعني بذلك الكلمة القرآنية المفردة، وإنما مكانة الكلمة في النظم القرآني المعجز لأن قيمة المفردات ليست ذاتية وإنما تعود قيمتها إلى مكانها من النظم المعجز الأخاذ، ومعلوم أن التحدي لم يحصل بالكلمة بل أقل ما حصل بسورة. ويظهر الإعجاز اللغوي في الكلمة القرآنية من عدة وجوه:

الأول: الكلمة في القرآن مسوقة في موقعها المناسب لتؤدي المعنى المراد وتتلاءم من الناحية اللفظية والمعنوية مع ما قبلها وما بعدها خذ مثالاً لذلك قوله تعالى: {وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ}[85]، فلو استبدلت كلمة الفجر بكلمة الصبح أو كلمة الوتر بكلمة الفرد أو كلمة الحجر بكلمة العقل لاختل حسن نظم الكلمات.

وتأمل أيضاً كلمة يُسْر تجد أن الياء حُذفت منها للانسجام مع كلمة الفجر، عشر، الوتر، الحجر.
ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا}[86] فلو تقدمت كلمة مني على كلمة العظم لاختل النظم في الآيات ولأحسست بما يشبه الكسر في وزن الشعر[87].
الثاني: أن الكلمة القرآنية مسوقة في موقعها المناسب بحيث تعطي بمدلولها ما تلقيه من ظلال المعنى المراد بكماله وتمامه مع ما فيه من إيحاءات، ولو استبدلت بغيرها ما استفيد المعنى المراد. وقد تجد كلمة في القرآن الكريم تعبر عن معنى يعجز البشر عن التعبير عنه إلا بعِدَّة كلمات.
خذ مثالاً لذلك، كلمة استقاموا في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ...}[88]، فقد جمعت هذه الكلمة الإتيان بالخير كله والبعد عن الشر كله[89].
ومن أمثلة ذلك أننا لو أردنا بيان فوائد النار في حياة الناس نقول: إنها مما يحتاج إليها في الحضر والسفر وفي طهي الطعام عند الجوع ثم ننعم بدفئها في برد الشتاء القارص. كل هذه المعاني دلت عليها كلمة (المقوين) في قوله تعالى: {أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ}[90].
إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة في هذا الباب[91].
الثالث: إن هناك بعض الكلمات يظن القارئ أنها مترادفة، فإذا تأملت استعمالاتها في القرآن رأيت بعضها استعمل في موطن والبعض الآخر في موطن آخر، وفي كل موضع يبلغ التعبير القرآني ذروته في حسن الصياغة ودقة التعبير.
خذ مثالاً لذلك، كلمتي (هامدة)، (خاشعة) استعملت في القرآن للدلالة على الأرض قبل نزول المطر وخروج النبات منها. قال تعالى: {يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}[92].
وقال تعالى: {وَمِنْ ءَايَاتِهِ الَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُواْ لِلهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ اسْتَكْبَرُواْ فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْئَمُونَ * وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[93] يقول سيد قطب: "وعند التأمل السريع في هذين السياقين يتبين وجه التناسق في (هامدة) و (خاشعة). إن الجو في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج فمما يتسق معه تصوير الأرض بأنها ((هامدة)) ثم تهتز وتربو، وتنبت من كل زوج بهيج. وإن الجو في السياق الثاني هو جو عبادة وخشوع وسجود، يتسق معه تصوير الأرض بأنها ((خاشعة)) فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت..."[94].
ومن أمثلة ذلك التمام والكمال، فالفرق بينهما أن الإتمام لإزالة نقصان الأصل، والإكمال لإزالة نقصان العوارض بعد تمام الأصل، ولذلك كان استعمال كلمة (كاملة) أبلغ من استعمال كلمة (تامة) في قوله تعالى: {تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ}[95] ؛ لأن التمام علم من العدد وإنما جاءت كلمة (كاملة) لنفي احتمال نقص في الصفات[96].
ومن ذلك أيضاً القعود والجلوس، فالأول يستعمل لما فيه لبث بخلاف الثاني، ولهذا قال تعالى: {فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ}[97]، إشارة إلى أنه لا زوال لذلك، وقال في آية أخرى: {يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُواْ يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ}[98] لأن مثل هذه الجلسات لا تحصل إلا في زمن يسير[99].
إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة[100].

السادس: الجملة القرآنية

ما سبق قوله في الكلمة القرآنية نقوله هنا، وهو أن المقصود مكانة الجملة في النظم القرآني المعجز لا الجملة المفردة ؛ لأن قيمة الجملة ليست ذاتية، وإنما تعود قيمتها إلى مكانها من النظم المعجز الأخاذ، لذلك أقل ما وقع به التحدي السورة لا الجملة.

ومظاهر الإعجاز في الجملة القرآنية كثيرة منها:

- الأول: أنها مسوقة في موقعها المناسب لتتلاءم مع ما قبلها وما بعدها، وتنبئ عن حسن نظم الكلمات وهي غاية في الإحكام والترابط. ولهذا كان حفظ القرآن أيسر من حفظ سائر أنواع النثر. مثال ذلك قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ}[101] فلو أخذنا كلمة (النُّذُرْ) منفصلة عما قبلها في الآية لوجدنا ثقلاً في توالي الضمة على النون والذال معاً لكن الكلمة جاءت في القرآن متلائمة تماماً مع السياق يقول الرافعي: "تأمل مواضع القلقلة في دال (لقدْ) وفي الطاء من (بَطْشَتَنَا) وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو (تَمَارَوا)، مع الفصل بالمد، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان، ليكون ثقل الضمة عليه متسخَّفاً بعد ولكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة ثم ردد نظرك في الراء من (تماروا) فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء (النذر) حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها فلا تجفو عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه، ثم اعجَب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون (أنذرهم) وفي ميمها، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في (النذر) "[102].
- ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى: {قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}[103].

اشتملت هذه الآية على تسع جمل متلائمة مع ما قبلها وما بعدها وهي في غاية الدقة والإحكام.

أما الجملة الأولى في تلك الآية فهي قوله تعالى: {قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} والآية التي قبلها تضمنت أن كل من في السماوات والأرض ساجد[104] لله فلزم الإنكار على عبدة الأصنام والتوجه إليهم بهذه الجملة الآمرة بلفظ ((قل)). ولما كان عبدة الأصنام يقرون توحيد الربوبية[105] ناسب أن يأتي جواب الجملة الأولى على لسان محمد عليه الصلاة والسلام وهو قوله تعالى: {قُلِ اللهُ}. ولما بين الله سبحانه أنه الرب لكل المخلوقات ناسب أن يسألهم النبي: {قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا}. ومن يعبد جمادات لا تنفع ولا تضر يكون كالأعمى الذي يعيش في الظلمات بخلاف من يهديه الله ولذلك ناسب أن يأتي بعد ذلك قوله تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ}، ولما كان من البدهي أن الظلمة لا تساوي النور وأن العمى لا يساوي البصر فُهِمَ أيضاً أن الجاهل الذي يعبد جمادات لا تنفع ولا تضر لا يساوي العالم الموحد لله، لذا أكد الله سبحانه ما تقدم بالجملتين التاليتين {أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}. وقد جاء قوله: {وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} متلائماً مع ما قبله لأن خالق كل شيء تلائمه وتثبت له صفة الوحدانية والقهر والقوة[106].

- الثاني: أن الجملة القرآنية تدل على معنى واسع يعجز عنه الناس بعبارات كثيرة، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ}[107] وقد سبق الحديث عن هذه الآية في مبحث الإيجاز في القرآن. ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَآئِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ}[108]. فقد جمعت هذه الآية كل خير ونهت عن كل شر حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه: ((إن أجمع آية للخير والشر في سورة النحل: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ}[109] ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}[110]. فهذه الآية احتوت على معانٍ كثيرة لو أردنا أن نصوغها بلغتنا مع الحفاظ على ما فيها من المعاني لاحتجنا إلى أضعاف كلماتها[111].

- السابع: الفاصلة القرآنية

اختلف العلماء في تعريف الفاصلة القرآنية.

فقال الرماني: الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني[112].

وقال ابن منظور[113]: الفواصل أواخر الآيات في كتاب الله[114].

وكذا قال الزركشي: الفاصلة كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع[115].
ويرى بعض العلماء أن رؤوس الآيات والفواصل مترادفان[116] وهي نهايات الآيات كما قدمت. ويرى آخرون أن الفاصلة أعم، فهي الكلام المنفصل مما بعده. والكلام المنفصل قد يكون رأس آية وغير رأس آية وكذلك الفواصل يَكُنَّ رؤوس آي وغيرها. فكل رأس آية فاصلة ولا عكس[117].
ومن الفواصل ما هو آية كقوله تعالى: "الرَّحْمَنُ"[118]، {الْحَآقَّةُ}[119] ومنها ما هو بعض آية وهو الغالب كما سيأتي.
والفواصل بحسب حروف الروي نوعان:
الأول: المتماثلة[120]: وهي التي تماثلت حروف رويتها سواء في الحرف الأخير كقوله تعالى: {مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَى * إِلا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى * تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}[121] أو في الحرفين الأخيرين كقوله تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}[122]. أو في الأحرف الثلاثة الأخيرة كقوله تعالى: {مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ}[123]، أو في الأحرف الأربعة الأخيرة كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَىِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ}[124].
وقد استقلت الفواصل المتماثلة بإحدى عشرة من سور المفصل[125] ومعظمها مكي[126].
ويسمي البعض الفواصل المتماثلة بالمتجانسة[127] أو ذات المناسبة التامة[128].
والأصوب عندي أن تسمى المتماثلة لأن التجانس كما هو معلوم عند علماء التجويد يكون بين حرفين اتحدا مخرجا واختلفا صفة. وكذا التماثل أولى من ذات المناسبة التامة لأن المصطلح يفضَّل أن يكون أقصر بشرط الدلالة على المعنى بتمامه وقد تحقق هنا بقولنا (التماثل).
الثاني: الفواصل المقاربة:
كالميم مع النون في قوله تعالى: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ}[129] والدال مع الباء في قوله تعالى: {ق وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُواْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ}[130] والتقارب في الحروف يكون بين حرفين تقاربا مخرجاً وصفة كالذال والسين أو تقاربا صفة لا مخرجاً كالذال والجيم[131].
ويلاحظ أن الفاصلة القرآنية تأتي مكملة للمعنى الذي قبلها ومناسبة له بحيث لو تغيرت اختل المعنى... يدرك هذا كل من عنده ذوق أدبي.
حَكَى الأصمعي[132] قال: ((كنت أقرأ: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَ بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ والله غفور رحيم وبجنبي أعرابي فقال: كلام من هذا ؟ فقلت: كلام الله. قال أعد فأعدت. فقال ليس هذا كلام الله. فانتبهت فقرأت {وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[133] فقال: أصبت هذا كلام الله. فقلت أتقرأ القرآن. قال: لا. فقلت: من أين علمت ؟ فقال: يا هذا عز فحكم فقطع، ولو غفر فرحم لما قطع))[134].
وقد يسأل سائل ما الحكمة في أن بعض الفواصل غريبة اللفظ مثل كلمة ضيزى في قوله تعالى: {تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى}[135]، فكلمة ضيزى بمعنى جائرة أو ظالمة، فلماذا عدل عن الكلمات المألوفة إلى الكلمة غير المألوفة.
والجواب على هذا السؤال من وجهين:
الأول: من جهة حسن النظم والتناسق فإن سورة النجم تنتهي فواصلها بالألف المقصورة فناسب أن تكون الفاصلة كلمة ضيزى لا كلمة جائرة أو ظالمة.
الثاني: إن نسبة البنات إلى الله ونسبة الأولاد إليهم أمر في أشد الغرابة فناسب أن يعبر عنه بلفظ غريب تنبيهاً على غرابة القسمة[136].
وقد تختلف الفاصلتان في موضعين والمُحَدَّث عنه واحد وذلك لنكتة لطيفة. ومن ذلك قوله تعالى: {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوهَآ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}[137]، وقوله تعالى: {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَآ إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}[138].

ففي الآية الأولى يقول الحق جل وعلا للإنسان إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت آخذها وأنا معطيها فحصل لك عند أخذها وصفان: كونك ظلوماً وكونك كفاراً. وفي الآية الثانية يقول الحق سبحانه للإنسان ولي عند إعطاء النعمة لك وصفان وهما أني: غفور رحيم، أُقابِل ظُلْمَك بغفراني وكفرك برحمتي.
ثم سؤال آخر يطرحه المرء هنا: ما الحكمة في تخصيص آية النحل بوصف المنعم، وآية إبراهيم بوصف المنعم عليه ؟ والجواب أن سياق الآية في سورة إبراهيم في وصف الإنسان وما جبل عليه. فناسب ذكر ذلك عقيب أوصافه. وأما آية النحل فسيقت في وصف الله تعالى وإثبات ألوهيته وتحقيق صفاته، فناسب ذكر وصفه سبحانه[139].
وختاماً، وبعد بيان مظاهر الإعجاز البياني للقرآن الكريم يظهر بطلان القول بالصرفة.
وأول من قال بهذا الرأي النظام[140] المعتزلي. ومراده بالصرفة أن الله سبحانه صرف همم العرب في زمن الرسالة عن معارضة القرآن، والإتيان بمثله. أي أن القرآن ليس معجزاً لفصاحة ألفاظه وبلاغته وحسن نظمه وإنما لصرف الله العرب عن الإتيان بمثله. ولولا صرف الله العرب عن الإتيان بمثل القرآن لأتوا بمثله، وهم أهل الفصاحة والبيان.
ويرى النظام أن وجه إعجاز القرآن يكمن في إخباره عن الغيوب[141] ولم يرتض المعتزلة قول النظام وأكثرهم على تكفيره[142].
وقول النظام بالصرفة يرجع إلى قاعدة الحسن والقبح العقليين عند المعتزلة، وملخصها: أن كل ما رآه العقل حسناً، فهو عند الله حسن ومطلوب الفعل، وكل ما رآه العقل قبيحاً فهو عند الله قبيح ومطلوب الترك.
ومن وجهة نظر النظام العقل لا يحيل على العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان، أن يأتوا بمثل القرآن لولا أن الله صرف هممهم. فجعل النظام ما رآه العقل حكماً في هذه المسألة وهو الفصل فيها، مع أن مقولته منقوضة بعدة أدلة نقلية وعقلية منها[143]:
- قوله تعالى: {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}[144].
فهذه الآية تدلّ على بطلان القول بالصرفة لأنه لو كان إعجاز القرآن يكمن في صرف العرب عن الإتيان بمثله لما كان في اجتماع الإنس والجن فائدة.
- يلزم القول بالصرفة أن يكون العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان وحسن النظم، وأن يكون ما قالوه من شعر زمن الجاهلية أبلغ وأقوى من الشعر الذي قالوه بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، وحصول التحدي لهم، وليس الأمر كذلك.
لو حصل نقص في فصاحة العرب وبلاغتهم وحسن نظمهم للكلم، لكان هذا عذراً لهم ولقالوا لمحمد عليه الصلاة والسلام، لقد كان بإمكاننا أن نأتي بمثل القرآن في السابق، لكنك سحرتنا فَخُلْتَ بيننا وبين الإتيان بمثل القرآن. لكن ذلك لم يحصل، مع حرصهم الشديد على وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأوصاف لا تليق. بل وصفوه بأنه ساحر في كثير من الأمور، لكنهم لم يصفوه بأنه سحرهم في المقدرة على النظم والفصاحة والبيان.
- يلزم القول بالصرفة أن يكون العرب بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم قد سلبوا الحكمة وضعفت أذهانهم وتفكيرهم، وليس الأمر كذلك.
- لو كان كلام العرب قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم من شعر أو نثر مثل نظم القرآن لما انبهروا بالقرآن الذي سمعوه من محمد صلى الله عليه وسلم، ولما كان له مزية على كلامهم. لكن واقعهم يشهد بخلاف ذلك، فهذا الوليد بن المغيرة يقول: ((والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق وإن فرعه لجنات))[145] وكذا عتبة بن ربيعة قال: ((.... والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة))[146].
وكذا يروى في قصة إسلام عمر، قوله عن القرآن: ((ما أحسن هذا الكلام وأكرمه))[147] وقوله: ((فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام))[148]، إلى غير ذلك من القصص الكثيرة التي تدل دلالة قاطعة على أن أسلوب القرآن كان معجزاً ولم يكن العرب قد تعودوه أو سمعوا مثله[149]. وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.
حسين مطاوع الترتروي

إعجاز القرآن الكريم

جرت سنة الله تعالى أن يظهر على يد كل نبي من أنبيائه معجزة يظهر بها على قومه وتكون دليلاً على صدقه في أنه مرسل من الله تعالى.

وقد كانت معجزة كل نبي من جنس ما برع فيه قومه حتى يكون تحديه لهم فيما يعرفون وفيما يتقنون ليكون التحدي أعظم وأشد.

فجاءت معجزة عيسى عليه السلام إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله تعالى وهي من جنس ما برع فيه قومه وهو الطب وإن لم تكن طباً.

وجاءت معجزة موسى عليه السلام العصا واليد وغيرهما وهي من جنس ما برع فيه قوم فرعون وهو السحر وإن لم تكن سحراً.

وجاءت معجزة محمد ﷺ وقد تفوق قومه في البيان والفصاحة والبلاغة فجاءت معجزته عليه السلام من جنس ما برع فيه قومه فأنزل الله القرآن وأعجزهم ولم يستطيعوا ولن يستطيعوا الإتيان بمثله أو بعضه.

وقد بَيَّن العلماء هذا العجز عن الإتيان بمثل هذا القرآن بدراسة نصوص التحدي وإثبات العجز وما يتعلق بذلك كله في هذا المبحث (إعجاز القرآن) بل تجاوز ذلك إلى أن أصبح هذا الإعجاز علماً مستقلاً.

تعريف المعجزة:

لغة: أصلها مأخوذ من (عجز) قال ابن فارس: العين والجيم والزاء

أصلان صحيحان، يدل أحدهما على الضعف، والآخر على مؤخر الشيء[1].

وخلاصة كلام أهل اللغة[2] في ذلك أن كلمة عجز تطلق على:

١ ـ **العجز بمعنى:** الضعف تقول «عجزت عن كذا، أعجز أي ضعفت عنه، والعجوز سميت لعجزها في كثير من الأمور قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾[3].

٢ ـ **العجز بمعنى:** مؤخر الشيء والجمع أعجاز، وأعجاز الأمور: أواخرها، وعَجْزُ الشيء وعِجْزُه، وعُجْزُه وعَجُزُه وعَجِزُه: آخره، وعجز بيت الشعر: آخره وعجز المرأة وعجيزتها مؤخرتها، والعِجْزَة آخر ولد الرجل، وأعجاز النخل، وأعجاز الإبل، وأعجاز الليل: أواخرها والألف تسميه العرب العجوز لأنه آخر الأرقام عندها وما بعده يكرر فيقال عشرة آلاف، مائة ألف، ألف ألف.

وصار العجز في التعارف: اسم للقصور عن فعل الشيء وهو ضد القدرة قال تعالى: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾[4].

أما المعجزة في الاصطلاح فهي:

أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة يجريه الله تعالى على يد نبيه، شاهداً على صدقه.

(١) معجم مقاييس اللغة: ابن فارس مادة (عجز)، ص:٧٣٨.

(٢) انظر معجم مقاييس اللغة: ابن فارس ص:٧٣٨ ولسان العرب: ابن منظور جـ:٥ ص:٣٦٩ ـ ٣٧٣ والمفردات: الأصفهاني ص:٣٢٥.

(٣) سورة هود: الآية ٧٢.

(٤) سورة المائدة: الآية ٣١.

شرح التعريف:

ونريد بقولنا: (خارق للعادة) أنها مخالفة لأحكام العادة المألوفة كحرارة النار، وبرودة الثلج، وحدود القدرة البشرية المعتادة، فالمعجزة لا تخضع لهذه الأحكام ونؤكد أنها مخالفة لأحكام العادة وليست مخالفة لأحكام العقل.

ونريد بقولنا (مقرون بالتحدي) أن يكون مقصوداً بها تحدي القوم وإثارتهم للإتيان بمثلها حتى تقوم عليهم الحجة عند عجزهم والتحدي يكون إما بلسان المقال أو بلسان الحال من غير نطق به أو تصريح بالتحدي.

وقد أخطأ بعض الباحثين فأسقط هذا الشرط[1] معتقداً أن بعض المعجزات غير مقرون بالتحدي لاعتقاده أن التحدي لا بد أن يكون بلسان المقال.

ونريد بقولنا (سالم من المعارضة) أنه لا يمكن لأحد أن يأتي بمثلها، ولهذا فإن معجزات الأنبياء لا تتكرر فلكل نبي معجزاته الخاصة به لا يأتي أحد بمثلها حتى من إخوانه الأنبياء، وإلا لاشترك الأنبياء كلهم في نوع واحد من الخوارق لا يأتي به أحد غيرهم يدل على نبوتهم ولهذا الاختلاف حكم عديدة، وهي صفة يغفل عنها كثير من الباحثين فيقصرون عدم المعارضة على عامة الناس.

ونريد بقولنا (يجريه الله على يد نبيه) أن المعجزة وإن جاء بها النبي فليست من عنده وليست في قدرته ولكنها من الله.

ونريد بقولنا (شاهداً على صدقه) أن الإتيان بالمعجزة إنما هو لإقامة الدليل على أنه مرسل من ربه وإقامة الحجة على قومه.

المعجزة في القرآن الكريم:

ورد في القرآن الكريم استعمال مشتقات كلمة (عجز) نحو ست

(١) البيان في إعجاز القرآن: د. صلاح الخالدي ص:٢٤.

وعشرين مرة لكنه لم يرد استعمال مصطلح (معجزة) ولا (إعجاز) في القرآن ولا في السنة.

ولم يعرف إطلاق مصطلح (معجزة) على الأمور الخارقة التي تظهر على أيدي الأنبياء عليهم السلام إلا في أواخر القرن الثاني تقريباً[1].

وأطلق القرآن على المعجزة عدة مسميات منها:

١ ـ **الآية**: في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾[2] وقال تعالى على لسان صالح عليه السلام: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾[3] وفرعون يقول لموسى عليه السلام: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[4].

٢ ـ **البينة**: قال موسى عليه السلام لفرعون ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[5] وقال صالح عليه السلام لقومه: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾[6].

٣ ـ **البرهان**: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾[7] وقال سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه موسى عليه السلام بعدما أمره أن يلقي عصاه فإذا هي حية وأن يخرج يده فإذا هي بيضاء من غير سوء ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾[8].

(١) مباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم، ص:١٣.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٠٩.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٧٣.
(٤) سورة الأعراف: الآية ١٠٦.
(٥) سورة الأعراف: الآية ١٠٦.
(٦) سورة الأعراف: الآية ٧٣.
(٧) سورة النساء: الآية ١٧٤.
(٨) سورة القصص: الآية ٣٢.

٤ ـ **السلطان**: كما قال الكفار لأنبيائهم: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ وأجاب الرسل عليهم السلام ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾[2].

شروط المعجزة:

وللمعجزة شروط منها[3]:

١ ـ أن تكون من الأمور الخارقة للعادة:

سواء كانت كلاماً كالقرآن الكريم، وتسبيح الحصى بين يدي الرسول ﷺ وحنين الجذع وكلام الهدهد ونحو ذلك. أو كانت فعلاً كانشقاق القمر، وانفجار الماء من بين أصابعه ﷺ وتكثير الطعام القليل ونحو ذلك. أو كانت ترك فعل كعدم إحراق النار لإبراهيم عليه السلام وعدم إغراق البحر لموسى عليه السلام وقومه وعدم تأثير السم في جسده ﷺ.

والمعجز هو الأمر الخارق للعادة ولو فعل النبي أمراً غير خارق للعادة ولم يستطع الآخرون فعله فإن الإعجاز ليس في فعله وإنما في منعهم وحبسهم عن الإتيان بمثل فعله كما لو رفع الرسول يده أو مد رجله أو تكلم بالكلام المعتاد ثم تحدى قومه بالإتيان بمثل فعله أو قوله فلم يستطيعوا ذلك فإن الإعجاز ليس في فعله هذا أو قوله لأنه ليس خارقاً للعادة وإنما الإعجاز في هذه الحالة في منعهم وحبسهم عن ذلك لكونه هو الأمر غير المعتاد والخارق للعادة.

(١) سورة إبراهيم: الآيتين ١٠ ـ ١١.
(٢) سورة المؤمنون: الآية ٤٥ ـ ٤٦.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن: القرطبي. ج:١ ص:٧٠ ـ ٧١ وانظر مباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم. ص:١٥ ـ ١٧ ومنهما اقتبست هذا المبحث.

٢ ـ أن يكون الأمر الخارق للعادة من الله:

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[١] وقال الأنبياء عليهم السلام ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[٢] وحين قال الكفار للرسول ﷺ ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ أمره الله أن يقول: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[٣].

٣ ـ سلامتها من المعارضة بالإتيان بمثلها:

إذ لو استطاع البشر الإتيان بمثلها لما صلحت علامة على أن صاحبها مرسل من ربه، فلا بد لكونها علامة على صدق صاحبها في أنه مرسل من ربه أن لا يقدر البشر كلهم بل والجن معهم على الإتيان بمثلها لأنها من قدرة الله وحده. كما قال تعالى عن القرآن ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾[٤].

٤ ـ أن تقع وفق مقتضى قول صاحبها:

فلا تقع على خلاف قوله. فإذا جاءت على خلاف قوله لم تصلح دليلاً على دعواه، ولا دليلاً على صدقه لمخالفتها لمقتضى كلامه كما حدث لأدعياء النبوة.

٥ ـ أن تقترن بالتحدي عند وقوعها:

وذلك لأمرين: أولهما: إثبات عجز المخاطبين عن الإتيان بمثلها وعدم إدعائهم أو من بعدهم عدم وجود الداعي للإتيان بمثلها وثانيهما: إقامة الحجة عليهم عند عجزهم.

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٩.
(٢) سورة إبراهيم: الآية ١١.
(٣) سورة يونس: الآية ١٥.
(٤) سورة الطور: الآية ٣٤.

ولا يلزم أن يكون التحدي بلسان المقال كما فهمه بعض المعاصرين وإنما يكون بلسان المقال وبلسان الحال إذ المقام مقام صراع، وعناد، واحتجاج يغني فيه الحال عن المقال في بعض المقام.

٦ ـ أن يستدل بها النبي على صدقه في رسالته:

إذ الغرض من إظهارها إثبات أمرين: أولهما أنه صادق في دعوى الرسالة. ثانيهما: أنه مرسل من الله لا من غيره، فينبغي أن يكون إظهارها لإثبات ذلك لا لغيره دونهما.

٧ ـ أن يكون ظهور المعجزة أو المعجزات بعد دعوى الرسالة:

حتى يصح الاستشهاد بها، أما إذا تقدم وقوع الأمر الخارق على دعوى الرسالة فإنه لا يسمى معجزة وإنما يسمى (إرهاص) كتظليل السحابة للرسول ﷺ وهو في سفره إلى الشام قبل البعثة.

جواز وقوع المعجزة:

لا يشك مؤمن بأن الله سبحانه وتعالى هو خالق هذا الكون كله صغيره وكبيره ومدبر شؤونه، وموجد نظامه والذي يوجد الشيء من العدم أقدر على تغيير سنة من سننه أو نظام من أنظمته بل أقدر على إعادة خلقه ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[١].

فالذي جعل النار حارة في قدرته أن يجعلها باردة، والذي خلق القمر قادر على أن يقسمه إلى نصفين، والذي خلق في السم خاصية قادر على سلبها منه، والذي خلق الثعبان من العدم قادر على خلقه من العصا، وهكذا في بقية المعجزات. ومن ينكر هذا فقد أساء الظن بربه وقدرته واعتقد ربوبية إله عاجز عياذاً بالله تعالى.

(١) سورة يس: الآيتين ٧٨ ـ ٧٩.

ومما يحز في النفس ظهور بعض من ينكر الخوارق أو بعضها، ويؤولها بتكلف شديد حتى لا تكون من الأمور الخارقة، فيزعم مثلاً أن المرء إذا اعتقد اعتقاداً جازماً في أمر من الأمور، وتيقنه يقيناً قاطعاً أنه يقع وفق اعتقاده فإذا اعتقدت امرأة بكر لم تتزوج ولم يجامعها أحد أنها حامل وتيقنت ذلك فإن الحمل يقع!![1] ويريدون بذلك تعليل حمل مريم بعيسى عليه السلام فتكلفوا ما هو أغرب من المعجزة، وفروا من خارق إلى أخرق.

وفسروا فلق البحر لموسى عليه السلام بالمد والجزر، والطير الأبابيل[2] بالجراثيم والميكروبات.

ونسي أولئك أن الذي يقدر على جعل الماء سائلاً قادر على أن يجعله متجمداً أو صلباً، وما المانع أو المستغرب أن يجعل نوعاً من أنواع الطيور قادراً على حمل حجارة ورميها على أعداء الله ونحو ذلك.

المراد بإعجاز القرآن الكريم:

للعلماء في تعريف الإعجاز أقوال تختلف ألفاظها وتتحد معانيها منها تعريف الهمداني أن معناه: «أنه يتعذر على المتقدمين في الفصاحة، فعل مثله، في القدر الذي اختص به»[3].

ويمكن تعريفه بقولنا هو: عجز المخاطبين بالقرآن وقت نزوله ومن بعدهم إلى يوم القيامة عن الإتيان بمثل هذا القرآن مع تمكنهم من البيان

(١) تفسير المنار: ج:٣ ص: ٣٠٩ ـ ٣١٠.

(٢) حكاية طريفة أسوقها للعظة والعبرة طفل صغير سأله والده ماذا حفظت اليوم؟ فقال: سورة العصافير فاستغرب والده وطلب منه قراءتها وحين قرأها وجد أنه فهم من ذكر الطير الأبابيل أنها طيور حقيقية وهو لا يفهم من الطيور إلا العصافير فانظر لهذا العقل الفطري وانظر لتأويلات أهل العقول الكبيرة!!.

(٣) المغني في أبواب التوحيد والعدل: ج:١٦، (إعجاز القرآن)، ص:٢٢٦.

وتملكهم لأسباب الفصاحة والبلاغة وتوفر الدواعي واستمرار البواعث.

إثبات إعجاز القرآن الكريم:

حين نزل القرآن الكريم لم ينزل بما يوافق معتقدات الجاهلية أو يداريها بل نزل هادماً لها، مبطلاً لأصولها، منكراً لمبادئها، ساخراً من معتقداتها وأهلها أهل جاهلية، أهل عناد واستكبار، أهل طغيان وجبروت، أهل أنفة وعزة، لو كان عندهم أدنى قدرة على معارضة القرآن أو الإتيان بمثله وقد تحداهم واستثارهم لذلك ما ترددوا وما تلكؤوا ولكنهم يعلمون من فورهم أن بينهم وبين ذلك بعد ما بين المشرقين أو قل بعد ما بين السموات والأرضين.

نعم عجزوا وهم أهل اللغة وأهل البيان «أجل، لقد سجل التاريخ هذا العجز على أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن. وما أدراك ما عصر نزول القرآن؟ هو أزهى عصور البيان العربي، وأرقى أدوار التهذيب اللغوي»[1] جمعوا الحشود في الصحراء، ورفعوا المنابر في الأسواق وعرضوا فيها أنفس بضائعهم، وأجود صناعاتهم وما البضاعة إلا بضاعة الكلام وما الصناعة إلا صناعة الشعر والخطابة، يتبارون في عرضها، ويتنافسون في نقدها، «فما هو إلا أن جاء القرآن.. وإذا الأسواق قد انفضت إلا منه، وإذا الأندية قد صفرت إلا عنه، فما قدر أحد منهم أن يباريه أو يجاريه»[2] كرروا النظر ورجعوا البصر عليهم يجدون فيه فجوة ينفذون منها فعاد إليهم البصر خاسئاً وهو حسير.

«ولم يسد القرآن عليهم باب المعارضة بل فتحه على مصراعيه فدعاهم إليه أفراداً أو جماعات. بل تحداهم وكرر عليهم ذلك التحدي في صور شتى، متهكماً بهم، متنزلاً معهم إلى الأخف فالأخف...، وأباح

(١) النبأ العظيم: د. عبد الله دراز، ص:٨٣.

(٢) المرجع السابق: ص:٨٣ ـ ٨٤ بتصرف.